التَّفسيرُ المُسْتَرسِل.. نَمَطٌ جَدِيدٌ وأُسْلُوبٌ مُغايِرٌ

(قراءة جديدة لمضامين أحدث التفاسير المعاصرة)

د. حسين رشيد الطائي
المركز الحسيني - لندن

◆ يبقى القرآن الكريم على مر العصور، أكبر معجزة أنزلها الله تبارك وتعالى على خاتم أنبيائه ورسلهﷺ، تبيانا لشريعته ودليلا على صدق رسالته التي تبيّن الحلال والحرام، ودستورا تستقيم به البشرية في جميع جوانب حياتها، فالقرآن لم يغادر صغيرة ولا كبيرة في شتى نواحي الحياة إلا وأجملها أو فصَّلها، وتلك التعاليم السماوية الربانية التي أنزلها الله تبارك وتعالى لم تكن على سبيل الإعجاز الذي يدل على النبوة وصدق الرسالة فحسب، بل كان هدفها الرئيس هداية البشرية الى صراط العزيز الحميد في ضوء القرآن الكريم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [سورة الاسراء: ٩]. وقال أيضا عز من قائل: ﴿ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ

﴿ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [سورة المائدة: ١٥ -١٦].

فالقرآن إنما جاء لإصلاح الخلق، وقد تكفّل بجميع ما يحتاج إليه الناس في أمور دينهم ودنياهم، سواء في العقائد أو الأخلاق أو في العبادات أو في المعاملات بجميع أنواعها، وهو في كل ذلك حكيم كل الحكمة، لا يعتريه خلل ولا اختلاف، ولا تناقض ولا اضطراب، وصدق الله حيث قال: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴾[سورة النساء: ٨٢]. والقرآن أصيل غاية الأصالة، وعدلٌ غاية العدالة، ورحيمٌ غاية الرحمة، وصادقٌ غاية الصدق، قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾[سورة الأنعام: ١١٥]. فلا عجب.. إن كانت السعادة الحقّة لا تُنال إلا بالاهتداء بهديه، والالتزام بما جاء فيه، فهو الشفاء من امراض النفوس وأدواء المجتمع، فاهتدت به القلوب بعد ضلال، وأبصرت به العيون بعد عمى، واستنارت به العقول بعد جهالة، واستضاءت به الدنيا بعد ظلمات.

من هنا كان القرآن الكريم ككتاب يحوي كل هذه الحقائق واللطائف والمعارف والحكم والتبيينات محطّ أنظار المتلهّفين الى الحقيقة ونظر الدارسين والباحثين عن الدراية، فألّفت فيه الآلاف من البحوث والدراسات والموضوعات، تناولت آياته وموضوعاته ومفرداته ومعانيه، واهتمت بتفسيره شريحة من العلماء الأفذاذ جرياً على سُنّة المصطفى، الذي كان أول مَن فسَّره وحضَّ الناس عليه، وكذلك فعلَ الأئمة الأطهار عليهم السلام، الذين تركوا مصنفات عديدة اهتمّت بتفسيره، كما فعلَ الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله، حيث جمعَ القران على حسب نزوله وأردفه بتفسير الآيات وجمعه في سبع مجلدات ضخام.

وبالاضافة الى إفاضات الأئمة الأطهار في إيضاح مفردات القرآن وآياته وسوره للناس والتي أصبحت المصادر الرئيسة للمفسرين الإمامية وغيرهم، والتي شكلت جانبا مهما من التفسير بالأثر، فلا يخفى أن أهل البيت عليهم السلام كانت لهم تصانيف كثيرة في تفسير القرآن

وتوضيحه، منها ما وصل الينا مُسندا لهم ومنها ما أُسند لتلامذتهم، هذا غير المسائل التي نقلتها لنا الكتب والمؤلفات. واتباعاً لسُنّة المصطفى عليه الصلاة والسلام وأهل بيته الأطهار قام جمهرة من علماء الإمامية بتآليف كثيرة في تفسير القرآن الكريم بدءاً بالصدر الأول للاسلام والى يومنا هذا. والمكتبة التفسيرية الآن حافلة بكتب التفسير المتنوعة من حيث المنهج والسعة والاتجاه، فمنها ما اهتمَّ بالجانب الفقهي ومنها ما اهتمَّ بجانب البيان واللغة ومنها ما اهتمَّ بالعرفان ومنها ما اهتمَّ بالاجتماع والأخلاق وغيرها من الموضوعات التي تتعايش في المجتمعات الانسانية، وتبعاً لاختلاف المناهج والاتجاهات والاهتمامات اختلفت أساليب المفسّرين عبر العصور.

وفي خضم هذه المنظومة الضخمة والمتشعبة والطويلة من التفاسير، يطل علينا آية الله العلامة الدكتور الشيخ محمد صادق محمد الكرباسي بتفسيره الموسوم (التفسير المسترسِل)، والذي يُعد من التفاسير الحديثة، التي حاول فيها سماحته توظيف الكم الهائل من التفاسير ومناهجها واتجاهاتها وجعلها طيّعة وسهلة ومُحبذَة الى الباحث عن الحقيقة من غير تعقيد أو غموض أو إطالة، وبِلُغةٍ سهلةٍ، مع وسائل إيضاح معروفة ومُبتكَرة قام بها سماحته.

منهجية التفسير:

المحقق العلامة الكرباسي من خلال تفسيره (المسترسِل) لم يكن تقليديا، كما أن تفسيره لم يكن على نمط التفاسير التي وضعت قبله، فلقد حاول أن يستفيد من تجارب المفسرين الماضين والمعاصرين قبله ويوظفها في العملية التفسيرية.

ومن خلال دراسة المحقق الكرباسي للعديد من التفاسير التي وضعت قديما وحديثا وبالتزامن مع الثورة المعلوماتية التي نعيشها، كان للكرباسي وجهة نظر خاصة في دراسة هذه الأمور مجتمعة، فهو دارسٌ جيّد للتفاسير ومناهجها ومدارسها، بل وحتى لغاتها وتوجهاتها، وفي نفس الوقت عارفٌ بأن الناس على مستويات عدّة في الفَهم والإدراك، فأراد من خلال وضع تفسيره (المسترسِل) أن يكون القرآن مقروءاً من قبل الجميع ومفهوما أيضا على اختلاف مداركهم وتفاوت أذهانهم.

فالفقيه المفسر الكرباسي قَسَّم مُجمل التفاسير التي أُلّفت قبله واستخرج مفاهيمها الوسط، بمعنى أنه اهتمَّ بتفسير المسائل المُعقَّدة، وبنفس الوقت لم يكن تفسيره من المختصر كباقي التفاسير المختصرة كتفسير شُبَّر وتفسير الجَلالَين والتفسير المُعين وغيرها، مما لا تتطرق للتفاصيل. وانصبَّ عمله على مفهوم وسط للآيات من غير تعقيد أو إيغال بمسائل الفلسفة والمنطق وعلم الكلام وعلوم القرآن والبيان وغيرها.

ولتوضيح هذا الأمر سنختار ثلاثة من المُفسرين، واحدا منهم اهتم بالجانب اللغوي، والآخر اهتمَّ بالجانب النقلي، والثالث اهتم بالجانب القرآني (أي تفسير القرآن بالقرآن) من خلال تعرضهم لتفسير آية واحدة في القرآن، ثم نقارن عملهم ومنهجهم بعمل ومنهج المفسر الكرباسي، فقد تناول الزمخشري في تفسيره (الكشّاف) تفسير قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾[سورة النبأ: ٣٨]، فأورد في بداية كلامه إعراب الألفاظ القرآنية وقال من جملته (يوم تقوم) متعلق بما يملكون أو بلا يتكلمون، بمعنى إن الذين هم أفضل الخلائق وأشرفهم وأكثرهم طاعة وأقربهم منه وهم الروح والملائكة لا يملكون التكلم بين يديه فما ظنك بمَن عداهم من أهل السماوات والأرض، ثم قال: والروح أعظم خلقا من الملائكة وأشرف منهم وأقرب من رب العالمين، ثم نقل الأقوال في معنى الروح[1]، أما الكاشاني في تفسيره (الصافي)، وهو معروف عنه أنه يهتم بالجانب النقلي من باب ما يسمى (التفسير بالأثر)، أي بمعنى التفسير المُعتمِد على أحاديث الرسول الأكرمﷺ وروايات المعصومينعليهم السلام، فقد تناول لفظة الروح في هذه الآية وقال: نقلا عن القمي في تفسيره، أنه قال: الروح ملك عظيم أعظم من جبرئيل وميكائيلعليهما السلام كان مع رسول اللهﷺ، وهو مع الأئمةعليهم السلام، وقال رواه في المجمع عن القمي عن الصادقعليه السلام، وفيه عنهعليه السلام وفي الكافي عن الكاظمعليه السلام قال: نحن والله المأذونون لهم يوم القيامة والقائلون صوابا، قال ما تقولون إذا تكلمتم؟. قال: نُمجّد ربنا ونُصلّي على نبيّنا ونشفع لشيعتنا ولا يردّنا ربنا[2]. وبهذا يتضح أن

(١) الزمخشري: تفسير الكشاف ج٤ ص ٢١٠ -مطبعة مصطفى الحلبي -مصر ١٩٦٦م.
(٢) الفيض الكاشاني: تفسير الصافي ج٥ ص ٢٧٧ -ط٢ -مؤسسة الهادي -قم -١٩١٦.

الكاشاني لم يتطرق الى اللغة أو الإعراب والآراء الكلامية والبيانية في هذا المقطع من تفسيره، واكتفى بروايتين عن الإمامين الصادق والكاظم عليهما السلام.

أما الطباطبائي في تفسيره الأوسع والأدق والمُعتمِد فيه بشكل واضح على منهج تفسير القرآن بالقرآن (أي اعتماد الآيات الأخرى في التفسير)، فقد أفرد بحثا خاصا فتناول الآيات التي تحدثت عن موضوع الروح ودرس معانيها، من قبيل قوله تعالى ﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾[سورة مريم: ١٧]. وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾[سورة الشورى: ٥٢] ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾[سورة الاسراء: ٨٥]، وبقية الآيات التي تحدثت عن الروح، واستخرج من خلالها معاني اللفظ وخاضَ فيها كلاما مطولا، ثم أفرد بحثا روائيا خاصا بالمسألة أورد فيه الروايات الشريفة عن المعصومين في مسألة الروح، ثم استخلص نتيجة بحثه بأنه خَلْقٌ أعظم من الملائكة وساق رواية الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في ذلك[٣].

أما العلامة الكرباسي فقد تناول تفسير هذه المفردة بقوله: (حين يقوم الملك الروح جبرائيل أو غيره، وكذلك تقوم الملائكة بين يدي ربها صفا وبشكل منتظم مهيب، وحينئذ جميعهم لا يتكلمون هيبة منه تعالى إلا مَن أذن له الله الرحمن في الكلام وقال الملك أو الإنسان حديثا صوابا صحيحا، وربما التمسوا من الله مقولتهم أمرا)[٤].

وواضح منهج الشيخ الكرباسي في تقديمه لخُلاصة نتيجة تفسير المفردة القرآنية المقصودة، فهو لم يخض في مسائل الكلام واللغة والبيان، ولم يتطرق الى البحوث المفصلة، والتي ربما تشوّش أذهان بعض عوام الناس، وانتقل الى تفسير اللفظة بشكل مباشر، مستفيدا من جميع البحوث السابقة لدى المفسرين، ومركّزا على المعنى الوسط الذي من الممكن أن يتفق عليه الجميع، فقال في تفسير لفظة الروح بأنه (الملك الروح جبرائيل أو غيره، وكذلك تقوم الملائكة بين يدي ربها صفا)، وقد نقل كل من الزمخشري والصافي

(٣) أُنظر الطباطبائي: تفسير الميزان ج١٣ ص١٩٩ -مؤسسة النشر الاسلامي -قم -ايران.
(٤) التفسير المسترسِل: ج٢٠ ص٢٥.

والطباطبائي روايات عديدة يُفيد قسمٌ منها بأن البعض ذهبَ الى أن الروح مَلَكٌ، لكنه مختلف عن باقي الملائكة أعرضنا عن ذكرها لعدم التطويل، ولذلك استفاد الكرباسي من كل ذلك واختصره بقوله تعالى(الملك) الروح جبرائيل أو غيره، وبذلك جاء المعنى صافيا الى النفس من غير تطويل ولا تعقيد ولا تشويش.

الأمر الآخر الذي يميّز عمل المُفسّر الكرباسي في تفسيره (المسترسِل) ومنه أخذ التفسير اسمه، إنه جعل تفسير الآيات الكريمة على شكل قصة ذات موضوع وهدف واحد، ويكاد يكون الكرباسي أول مَن يقوم بهذا العمل المهم مُحطّما القيود التي حصرت التفسير بالمقطع الجزئي وصلته بوحدة السياق والنظم، وهو من خلال هذا كله يرى أن القرآن الكريم وحدة واحدة غير مجزأة والقراءة الأصيلة التي يجب أن نقرأه بها، قراءة الفَهم والإدراك وهي بأن نتّبع مفهوم آياته حسب ورودها في المصحف بعملية سردية أشبه ما تكون بالقصة، وهو بالفعل بعدما قام بتفسير الآيات بشكل متسلسل ومرتَّب ومتوالٍ، أردفه بقصة عن موضوع السورة أو الجزء بشكل عام، حيث يرى العلامة محمد صادق محمد الكرباسي (أيده الله) أن الآيات المجموعة ضمن إطار سورة أو جزء تتوحد من حيث الموضوع العام ويمكن أن تكون هناك قراءة مختلفة لها من حيث الهدف من مضامينها والغاية من نزولها، ومن أجل تطبيق أن (الغاية تبرر الوسيلة) تسامى الشيخ المحقق الكرباسي على القوانين الموضوعة في تأليف التفسير وتأطيره بحيث أصبحت قالبا لم يجعل من وسائل معرفة النص منطلقة نحو أفقها الشاسع الذي ينبغي أن تكون عليه.

أهم مميزات التفسير:

استنبط العلامة الكرباسي علامات توضيحية وتبيينية كثيرة في تفسيره (المسترسِل)، مثل علامة الاستفهام (؟) لتوضيح الآيات التي جاءت بصيغة الاستفهام، كقوله تبارك وتعالى ﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴾؟. [سورة الفيل: ٢].

وعلامة التعجب(!) مثل قوله تعالى ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾!. [سورة التكاثر: ١] للدلالة على التعجب على ما هُم عليه من الالتهاء بالتكاثر وجمع الأموال والانشغال بالدنيا عن

طاعة الله تعالى.

وعلامة القَسَم التي رمزَ لها بعلامة الاستفهام بشكل مقلوب للدلالة على أن الآيات مُقْسَمٌ بها من قبل الله تعالى، كما جاء في قوله تعالى ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴾[سورة التين: ١]، وكذلك علامة التمنّي ورمزَ لها العلامة الكرباسي بعلامة التعجب بشكل مقلوب، كما في قوله تعالى ﴿ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾[سورة الفجر: ٢٤].

ووضع سماحته علامة للشرط في الجمل الشرطية التي تضمنتها بعض الآيات الكريمة، ورمز لها بعلامة الفاصلة المنقوطة -أي الفاصلة التي تكون تحتها نقطة -والتي تُستخدم في الإملاء العربي، ومثالها في تفسير المسترسِل قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾[سورة التكوير: ١١ -١٤].

وقد وضع كذلك علامة للآيات التي تضمَّنت معاني الردع وسمّاها علامة الردع ورمزَ لها بالفاصلة المنقوطة، ولكن بشكل مقلوب، أي أن النقطة فوق الفاصلة، كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴾[سورة العلق: ١٥].

ووضع علامة للفصل ما بين الآيات سماها علامة الفاصلة، ورمز لها برمز الفاصلة المستخدمة في أسلوب الكتابة العربية (،)، وهذه العلامة تبيّن أن الآيات عبارة عن مقاطع مجزأة يوحدها المعنى للموضوع العام، كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴾[سورة المطففين: ٢٩ -٣٢].

وجعل النقطتين الشارحة للآيات التي تتضمن جملة مقول القول، وهذه العلامة أيضا مُستخدمة في الإملاء العربي لنفس الغرض(:)، ومثل استخدام هذه العلامة في قوله تبارك وتعالى: ﴿ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴾ [سورة الفجر: ٢٤ -٢٥].

وكذلك وضع العلامة الكرباسي علامة النقطة(.) للدلالة على انتهاء الموضوع أو المعنى الخاص بالآية، كما في قوله تبارك وتعالى ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [سورة الضحى: ١١].

وللجملة الاعتراضية كما في الجُمل المُفصّلة والمُبيّنة للقول وضع خطّين لما يُسمى في

الإملاء بالشحطتين (– –) كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴾[سورة المطففين: ١٢ –١٦].

وتكون قراءة الآيات وفقاً للرمز(الجملة الاعتراضية) هكذا ﴿ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴾ والآية ما بين الآيات الكريمة ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ جملة اعتراضية جاءت على سبيل التفصيل والتعليل.

وكذلك علامة التنصيص ()، والتي تدل على أن هذه الجملة خاصة وسط كلام عام، كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾[سورة الأحزاب: ٣٢ –٣٣].

الألوان:

حاول العلامة الكرباسي أن يستفيد من جميع الألوان ويوظّفها في خدمة النص القرآني وقارئه، مُراعياً التفاوت في أذهان القارئين وبساطة بعضهم، فجعل كل لون يرمز الى حُكْم من أحكام التلاوة، فاختار اللون الأحمر للإدغام والأزرق للوصل والسماوي للمَدّ والرمادي للتنقيط والكمّوني لرقم الآيات والبُنّي عند قراءة الحركة بصوت الحرف المجانس لها كالفتحة التي تجانس الألف فتُقرا ألفا، والضمّة التي تُجانس الواو فتُقرأ واواً، والكسرة التي تُجانس الياء فتُقرأ ياءً. أما اللون الأسود فجعلَهُ لكتابة سائر آيات القرآن الكريم، الى غير ذلك من العلامات والوسائل التوضيحية الأخرى.

لقد حاول الشيخ الكرباسي في تفسيره هذا أن يكون عملياً وموضوعياً وأن يتعامل مع الواقع بنظرة تناسبه، من أجل أن يوصل أفكار وتعاليم ومفاهيم القرآن الكريم للناس، مراعياً اختلاف أذهانهم وثقافاتهم، ولذلك اهتمّ بالألوان والعلامات والخطوط والوسائل

التوضيحية الأخرى، لكي يسهل على القارئ عملية قراءة القرآن الكريم وفهم تفسيره ومعانيه بطريقة تحبّبه في ذلك كله.

وهذه الوسائل التي ابتكرها سماحة الشيخ الكرباسي لتؤكد بحق مدى اهتمام هذا الرجل بأهمية إيصال معاني وتفسير آيات الله تبارك وتعالى وتعاليمه في القرآن الكريم الى أذهان كل الناس، وهذا الأمر بالنسبة اليه جاء من خلال إدراكه أهمية ذلك وتأثيره في الناس والمجتمع بصفة خاصة، بالاضافة الى كونها، كما يشعر هو سماحته، مسؤولية ألقاها على عاتقه. فلا ريب إذا رأينا هذا الكمّ الهائل من المؤلفات وهذا الإحساس العجيب بأهمية إيصال معاني القرآن وتعاليمه الى الناس، بالاضافة الى الجُهد والمثابرة في وصل الليل بالنهار من أجل خدمة الدين.

علامات الضبط بالرسم القرآني:

لم يكتف العلامة الكرباسي بابتكار علامات استيضاحية بالنسبة لقراءة القرآن والتفسير، كما مرّ بنا، لكنه راعى المهتمين بالقراءة على الخط العثماني وضوابطه الخاصة به فأوردها، إلا انه زاد عليها علامات أخرى، كما نرى في علامتي السجدة الواجبة والسجدة المستحبة، فوضع خطاً صغيرا تحت الكلمة للدلالة على أن هذه الآية فيها سجدة واجبة، ووضع خطاً فوق الكلمة للدلالة على أن السجدة هي مستحبة.

وكذلك وضع علامة للشكل المُعيّن وتدل على القراءة بالإمالة كما في قوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾[سورة هود: ٤١]، حيث تُمال الفتحة الى الكسرة والألف الى الياء، وكذلك بقية العلامات والرموز التي وضعها سماحته والتي تصب في فائدة قراءة القرآن بالشكل المطلوب، وتسهل على جميع الواردين من هذا المَعين العذب طريق الاستزادة والمعرفة بشكل تبسط للقارئ والمُهتم بالقرآن ولوج آياته ومعرفة معانيها وتفسيرها وطريقة قراءتها.

ويبدو لي أن المحقق الكرباسي ابتغى من وراء ذلك العمل هدفين مهمين:

الهدف الأول: استهداف شريحة كبيرة من المجتمع لم تتثقف بثقافة القرآن الكريم ولم تنل من معارفه إلا الشيء القليل.

الهدف الثاني: محاولة تطويع النصوص المُطوّلة والمُعقّدة لمُجمل التفاسير التي اهتمت بتفسير آيات القرآن الكريم، للقارئ البسيط بأسلوب مُشوّق وسهل وينفذ الى القلوب بسهولة ويُسْر ويفهمه الجميع.

الفهارس:

ومن منطلق أفق العلامة الكرباسي في استعمال ما أمكنه من وسائل الايضاح عملَ على إيجاد فهارس تُحيط بجميع جوانب النص القرآني من حيث التفصيل والتفسير، فقد أردف العلامة الكرباسي تفسيره بجداول وفهارس هي لوحدها تُعتبر عملا جبارا، فالفهرس الأول اشتمل على السور وتسلسلها في القرآن الكريم، وأسمائها المتداولة، بالاضافة الى الأسماء الأخرى التي عُرفت بها وأرقامها الترتيبية في المصحف، وكذلك أرقامها حسب النزول، ومن ثم عدّ آياتها، كما أورد موارد الخلاف في ذلك، ويذكر الجدول كذلك الطابع العام للسورة أو الآية كون بعض الآيات تحسب آية أو أكثر أو أقل حسب الاختلافات، وكذلك يشمل الفهرس مكان نزول الآية وعدد كلماتها وحروفها.

وكما قلنا سابقا فإن مثل هذا العمل عظيم ومهم وقد ملأ فراغا كبيرا كان موجودا، إذ أن التفاسير التي كانت قبله أو عاصرته إذا ما ذكرت بعض هذه التفاصيل لم تذكرها كاملا، بل ربما تذكر نُتفاً منها كما في المكي والمدني وعدد الآيات ومكان النزول، إلا أنها لا تذكرها بالتفصيل وبهذه الطريقة الوافية، بالاضافة الى التفاصيل الأخرى التي خلت التفاسير الأخرى منها، وهذه ميزة أخرى لتفسير العلامة المحقق الكرباسي (المسترسِل).

أما الفهرس الآخر، فقد اشتمل على ثلاثة أمور مهمة:

الأمر الأول: اللفظ.

الأمر الثاني: المعنى.

الأمر الثالث: الإعراب.

ففي الأمر الأول اهتمّ الكرباسي باللفظ القرآني.

وفي الأمر الثاني اهتم بالمعنى.

أما الأمر الثالث فقد اهتم فيه بالإعراب، كما أورد في قوله تبارك وتعالى على سبيل المثال: (أبّا) فجاء في الفهرس كالتالي:

(أبّا) عشبا معطوف عبس -٣١.

وكذلك في قوله تعالى (أبدا).

أبدا دائما ظرف زمان البينة -٨.

ولم يكتف العلامة الكرباسي بهذا، فأتبعه بهامش أسفل الصفحات فصّل فيه الإعراب والمعنى بشكل جميل ومفهوم، كما عرض لمختلف الآراء وحاول مناقشتها لاستخراج النتائج من خلالها.

ثم يأتي دور الفهرس الموضوعي للآيات الواردة في السور، والتي قسَّم فيها الآيات حسب موضوعاتها الاختصاصية، كالفقه والفلسفة والاجتماع والفلك والفيزياء، وغير ذلك كما في قوله تحت باب الآيات التي موضوعاتها في الفقه مثلا:

استحباب إجابة السائل -الضحى ١٠، استنادا الى قوله تعالى ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾

وفي موضوع العقيدة مثلا جاء تحت باب علم البلاغة مثلا:

التأكيد -النبأ ٥ النازعات ١ -٢ -٣ -٤ -٦.

وبذلك فقد اشتق العلامة الكرباسي فهارس جديدة للآيات تُضاف الى الفهارس الواردة في كتب التفسير أو الكتب التي تهتم بآيات القرآن الكريم، ولكن بأسلوب جديد وبشكل آخر مفيد.

القرآن قصة:

ومن وحي إيمان العلامة الكرباسي بأن القرآن الكريم وحدة واحدة لا يفصل بينها شيء، فقد أردف سماحته في تفسيره المميز بقصة للجزء أو للسورة متسلسلة الأحداث مترابطة المعاني حاول من خلالها استقطاب وحدة الهدف والمعنى لاستخراج المركب النظري لها، وهو ما يُذكّرنا بما دعا اليه العلامة الكبير السيد الشهيد محمد باقر الصدر قدس سره التفسير التوحيدي للقرآن الكريم، وهو محاولة ربط التفسير التجزيئي بالموضوعي ثم

استخراج النظرية الموحدة لجميع الأهداف والمعاني التي ترمي لها السورة أو الجزء بأكمله، وكذلك فعلَ العلامة الكرباسي حينما حاول ربط معاني وأهداف جزء كامل من القرآن كما رأينا في تفسير جزء عم وجعله على شكل قصة جميلة متسلسلة الأحداث تنساب الى النفوس وتتقبلها الأذهان من غير تعقيد أو إطالة، وبذلك فقد عالج العلامة المحقق الشيخ الكرباسي من خلال تفسيره هذا الحلقات المفقودة في التفاسير التي كانت قبله أو عاصرته من حيث الغموض والإبهام والإطالة والتعقيد، من خلال تفسير مُبسَّط غير مُعقّد مُهذّب غير مُتشعّب ومُركّز غير مُطوَّل وينفع لثلاثة مستويات من الفهم والإدراك:

المستوى البسيط: الذي من الممكن أن يكتفي بالقصة التفسيرية.

المستوى المتوسط: الذي يهتم باللفظ والمعنى والقراءة.

المستوى المتقدم: الذي يركّز على القراءة والإعراب والمضامين وغيرها من العلوم التي تدخل في تفسير القرآن.

كلمة أخيرة:

يُعتبر تفسير (المسترسِل) نقطة تحول في عالم التفاسير، حيث حاول فيه المُفسّر الشيخ العلامة الدكتور المحقق آية الله محمد صادق محمد الكرباسي لفت الأنظار الى جانبين مهمَّين:

الجانب الأول: إن المفسرين دائما ما كانوا يستهدفون المختصين والمُلمّين بالشأن القرآني وبعلوم التفسير في تفاسيرهم، فنجدها زاخرة بالآراء الكلامية والفلسفة والمنطق وعلوم القرآن وغيرها، والعلامة الكرباسي من خلال تفسيره هذا نبّه الى أن القرآن يجب أن يصل الى كل الشرائح في المجتمع وليس الى شريحة واحدة فحسب، فجاء تفسيره سهلا سَلِساً.

الجانب الثاني: إن المفسر الكرباسي أراد أن يثبت للمفسرين سواء ممن عاصروه أو سبقوه، أنهم أغفلوا جوانب مهمة كان ينبغي لهم الالتفات لها كاستخدام أكثر ما يمكن من الوسائل التوضيحية والمُحبّبة للقارئ والمُتابع لتفسير القرآن مثل استخدام الألوان والرموز والقصص المحببة والتبسيط مع مجموعة من الفهارس الممكنة لاستهداف أكبر شريحة في المجتمع مع الأخذ في الاعتبار شريحة المختصين بعلم القرآن وتفسيره.

(التفسير المسترسِل) يأخذ أهميته وتميّزه من نواحي عديدة، إلا أن ما يميّزه بالدرجة الأساس خلوّه من التعقيد، وأنه يوصل المعنى الى القارئ من غير مشقّة ولا تعب.

سدد الله خطى شيخنا الجليل العلامة المحقق الدكتور آية الله محمد صادق محمد الكرباسي وأمدَّ الله بعمره ليزيدنا من علمه وإفاضاته، والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وآله الطاهرين(*).

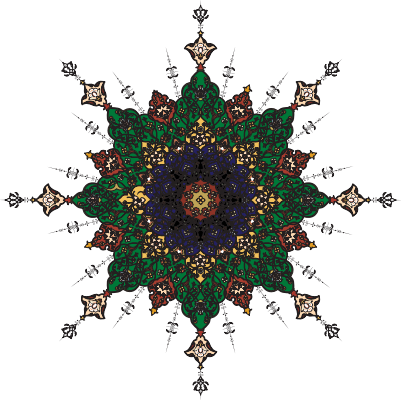

(*) مؤلف التفسير المسترسِل هو سماحة آية الله الشيخ محمّد صادق محمّد الكرباسي المولود في كربلا في ٥/ ١٢/ ١٣٦٦هـ (٢٠/ ١٠/ ١٩٤٧م)، من أسرة علمية عريقة يصل نسبها إلى مالك الأشتر النخعي، تخرّج من الحواضر العلمية في كربلاء المقدسة والنجف الأشرف وطهران وقم المشرفة، نال من أساتذته المراجع عدداً من الشهادات العلمية وغيرها، مُنح شهادات دكتوراه فخرية من جامعات مختلفة في العالم، تجاوزت مؤلفاته ألفي عنوان منها: دائرة المعارف الحسينية في أكثر من ٨٠٠ مجلد، وسلسلة الشرايع في ١٠٠٠، وسلسلة الاسلام في ٣٠٠، والتفسير المسترسِل في ٣٠، والتفسير المنظوم في ٣٠، بالاضافة الى أكثر من مئة عنوان في مختلف العلوم والفنون، يقيم الآن في لندن، له عدد من المشاريع في لبنان وسوريا ولندن وغيرها.